الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation
من خشية الله
إلى رجفة
الجوارح
لو تعلم لارتعشت من
معصيتك!
زاحم ساحات
الجهل والباطل،
يرجى نشر ما تقرأ
من علم وحق، ولا
تصمت صوتك في
الحق

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

تخيّل لو تجرؤ وتقدر ، تخيّل نفسك في هذا الموقف الرهيب..

الأرض تهتزّ تحت قدميك، والسّماء تنشقّ من فوقك، والملائكة صفوفاً صفوفاً حول عرش الرحمن، وأنت تقف في صمت مطبق، تريد أنْ تتكلّم فتجد فمك مختوماً بخاتم إلهيّ لا يُكسر، تحاول أنْ تصرخ أو تبرّر أو تعتذر.. لكنّ صوتك محبوس في حنجرتك!

وفجأة.. تسمع صوتاً يتكلّم..

إنّه صوت يدك اليمنى! تقول بوضوح مؤلم: يا ربْ، بي كتب الكذب، وبي وقّع على الرشوة، وبي ضرب الضعيف.

وقبل أنْ تفيق من الصدمة، تتكلّم يدك اليسرى: وأنا يا ربْ، بي أمسك المحرمات، وبي سرق من الضعفاء.

ثم تنطق قدمك اليمنى بصوت يخترق سكون الموقف: يا ربْ، بي مشى لمعصيتك، ودخل أماكن نهيته عنها، وترحف الأخرى: وأنا حملته إلى كلّ مكان أغضبك فيه.

وقبل أنْ تستوعب هول المصيبة، تفتح عينك اليمنى لتشهد: يا ربْ، بي نظر إلى ما حرّمت، وبي تلذّذ بالحرام، وتضيف الأخرى: وأنا رأيت معه كلّ ما تكره.

وها هما أذناك تتحدّثان معاً: يا ربْ، بنا سمع الغيبة فسُرّ بها، وبنا استمع للباطل فرضي عنه.

حتّى جلدك يشهد عليك: يا ربْ، عليّ الصق الحرام، وفيّ تلذّذ بما نهيته عنه.

وتشهد حاسة التّذوّق: يا ربْ، بي تذوّق الحرام فاستحلاه، وبي شرب الخمر فتلذّذ به.

وتنطق حاسة الشّم: يا ربْ، بي اشتمّ العطور ليتزيّن للحرام.

وفي هذه اللحظات المرعبة، تدرك أنّ كلّ عضو من أعضائك قد انقلب عليك، وأنّ كلّ نعمة أنعم اللّٰه بها عليك قد صارت شاهداً ضدّك! تريد أنْ تصرخ فيهم: "لماذا تشهدون عليّ وأنتم جزء منّي؟!" إلاّ أنّ صوتك ما زال محبوساً، وأنت تقف عارياً من كلّ حجة، مفضوحاً أمام الخلائق، والأدهى من ذلك.. مفضوحاً بأعضائك أنت!

فلو تخيّل الإنسان نفسه في هذا المشهد الجلاليّ المرعب، وتصوّر أنّ كلّ جارحة استعملها في معصية اللّٰه ستقف أمامه متّهمة له، شاهدة عليه، فاضحة لأسراره.. لارتعد فؤاده، ولاهتزّت أركانه، ولتمنّى لو أنّ الأرض انشقّت وابتلعته قبل أنْ يصل إلى هذا الموقف المذلّ..

ففي هذا المشهد يتجلّى العدل الإلهيّ المطلق، إذ يقول اللّٰه تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(يس: 65)، ففي هذه الآية حكمة إلهيّة بالغة، تتجلّى في إسكات اللّٰه الأفواه وانطاقه للجوارح، لكون اللسان قد يكذب، والكلام قد يُزوّر، أمّا الجوارح فهي أمانة صادقة لا تعرف المجاملة ولا المداهنة، فهي كآلات تصوير إلهيّة دقيقة تسجّل كلّ حركة، وكلّ لحظة، وكلّ خطيئة.

وحتّى نبضات قلبك محسوبة عليك، فكلّ خفقة خفق بها قلبك محبّة للّٰه أو لسواه، وكلّ نَفَس تنفّسته في ذكر أو في غفلة، وكلّ صمت صمتّه أكان خشوعاً أم جبناً عن قول الحق؟ فاللّٰه لا يحاسبك فقط على ما فعلت، بل على ما لم تفعل أيضاً، فكم من نبضة أُهدرت في حبّ الدنيا، وكم من نَفَس ضاع في اللهو، وكم من صمت كان خيانة للأمانة.

فتصوّر، يا رعاك اللّٰه، يداك تحكيان عن كل ما لمسته حراماً، كلّ رشوة تناولتها، وكلّ ضربة ظالمة أوقعتها، وقدماك تخبران عن كلّ خطوة سرت بها نحو المعصية، وكلّ مكان محرّم دخلته، وعيناك تفضحان كلّ نظرة آثمة، وكلّ منظر حرام تلذّذت به، وأذناك تكشفان عن كلّ كلمة نميمة سمعتها وتلذّذت بها، وكلّ أغنية استمعت إليها، ولسانك يشهد عليك بكلّ كذبة، وكلّ غيبة، وكلّ كلمة جارحة قلتها... أوتدري ماذا يعني ذلك؟

ماذا يعني أنْ تقف أمام اللّٰه وأعضاؤك تشهد ضدك؟

إنّه أشد أنواع الفضائح..

فالإنسان قد يستطيع خداع النّاس، وقد ينجح في إخفاء ذنوبه عن أقرب المقرّبين، لكنّه لا يستطيع إنكار شهادة جوارحه، فالعبد الذي يعصي اللّٰه بجارحة من جوارحه، فإنّها ستقوم يوم القيامة خصماً عليه لا له.

فها هم أكثر الناس يعيشون في غفلة عجيبة، يظنون أنّ ذنوبهم سرّيّة، وأنّ معاصيهم مخفيّة، لا يدركون أنّ كلّ جارحة من جوارحهم هي شاهد عليهم، فيقول اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ (فصلت: 22)، فكلّ ما خلقه اللّٰه سيشهد عليهم أو لهم..

فالفجر سيشهد قائلاً: يا ربْ، طرقت بابه كلّ صباح فلم يفتح لي، وناديته للقائك فآثر النوم عليّ.

وشهر رمضان سيشهد: يا ربْ، جئته ضيفاً كريماً مرّة واحدة كلّ عام، فاستقبلني بالمعاصي وودّعني بالذنوب.

وسيشهد الليل بدوره: يا ربْ، سترته بظلمتي لعلّه يتوب إليك، فاستغلّ ستري في معصيتك.

فكلّ وقت مبارك أضعته، وكلّ فرصة ذهبية أهدرتها، ستقف أمامك شاهدة على تفريطك..

ولكنْ أنّى لنا أنْ نحمي أنفسنا من هذا المصير المرعب؟

ويكمن الجواب في كلمة واحدة وهي الخشية، فخشية اللّٰه هي التي تجعل القلب يرتجف قبل المعصية، وهي التي تحول بين العبد وبين الذنب، ومن علاماتها؛ استحضار مراقبة اللّٰه، فيستشعر المؤمن أنّ اللّٰه يراه، حتى في أخفى خلواته، والخوف من الصّغائر، فلا يستهين بصغائر الذنوب التي قد تكون سبب هلاكه، والمسارعة للتّوبة، دون تأجيل أو تسويف، ومحاسبة النفس في كلّ يوم ماذا قدّم وأخّر.

ولكن كيف لنا أنْ نربي أنفسنا وأطفالنا على الخشية؟ وهنا تكمن الإجابة في ضرورة تذكّر الموت وما بعده، إذ يقول الرسول صلّى اللّٰه عليه وسلّم: "أكثروا ذكر هادم اللذات: الموت"، لكونه يقطع على النفس طريق المعصية، ويذكّرها بقرب الحساب، ومن ثمّ تدبّر القرآن، فالقرآن مليء بالآيات التي تصف أهوال يوم القيامة وعذاب الآخرة، وقراءة هذه الأهوال بتدبّر، وتخيّل هذه المواقف، سيجعل القلب يتأثّر بها، وهناك صحبة الصالحين، فالصديق الصالح مرآة تعكس لك عيوبك، وتذكّرك باللّٰه عند الغفلة، وتعينك على الطّاعة عند الكسل، فضلاً عن ضرورة المحاسبة الدائمة، إذ يقول عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن تُوزنوا، فإنّه أهون عليكم في الحساب غداً أنْ تحاسبوا أنفسكم اليوم."

ولو تأمّلنا ها هنا حقيقة الجوارح، لوجدناها نعمة ونقمة في الآن ذاته، فالجوارح التي قد تشهد عليك بالسوء، هي ذاتها من يمكن أنْ تشهد لك بالخير، فيداك اللتان قد تشهدان عليك بالظلم، يمكنهما أنْ تشهدا لك بالصدقة والعطاء، ورجلاك اللتان قد تشهدان عليك بالسير إلى المعصية، يمكنهما أنْ تشهدا لك بالسعي إلى المساجد وبيوت اللّٰه.

فأعضاؤك أمانة عندك، إمّا أنْ تستعملها في طاعة اللّٰه فتكون شاهداً لك...

وإمّا أنْ تستعملها في معصيته فتكون شاهداً عليك...

ولكنْ...

ماذا لو كان الإنسان قد أساء استعمال جوارحه؟ فهل من سبيل إلى الخلاص؟

نعم، السبيل هو باب التوبة الذي لا يُغلق إلا بطلوع الشمس من مغربها، فالتوبة النصوح تمحو الذنب وأثره، بل قد تحوّل السيئات إلى حسنات، كما قال اللّٰه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: 70)، وذلك إنْ تحقّق فيها الندم والإقلاع والعزم، وردّ المظالم.

وبعد،

فهنا همسة في أذن كلّ مذنب، لا تيأس من رحمة اللّٰه، فباب التوبة مفتوح، ورحمة اللّٰه واسعة، لكن إيّاك وأنْ تغترّ بحلم اللّٰه عليك، فتؤجل التوبة إلى الغد، فالموت يأتي بغتة، والأجل لا يستأذن، فالموت لا ينتظر توبتك واستقامتك، بل استقم وتبّ الآن وانتظر الموت....

وتذكّر أنّ كلّ نفس تتنّفسه، وكلّ خطوة تخطوها، وكلّ نظرة تنظرها، مسجّلة عليك...

فاتّق اللّٰه في جوارحك، واستعملها فيما يرضيه، واجعلها شاهداً لك لا عليك.

وتذكّر بأنّ الدنيا دار اختبار قصيرة، والآخرة دار حساب طويلة، فمن استعمل جوارحه في طاعة اللّٰه، جعلها اللّٰه شاهداً له يوم القيامة، ومن استعملها في معصية اللّٰه، كانت خصماً له يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون...

فالجوارح ستتكلّم حتماً.. فماذا تريدها أنْ تقول عنك؟ وماذا تريدها أنْ تشهد؟ وهل تريدها أنْ تكون سبب نجاتك أم سبب هلاكك؟

الخيار بيدك الآن، فاختر لنفسك قبل أنْ يأتي يوم لا خيار فيه ولا مجال للتراجع...

واعلم أنّ كلّ لحظة تمرّ عليك دون توبة وإصلاح، هي لحظة ضائعة من عمرك، وفرصة فائتة لن تعود.

اللهمّ أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، واجعل جوارحنا شاهدة لنا لا علينا يوم نلقاك.

اللهمّ آمين